وعلى التعلم من الطبيعة سر الخصب :

« وأعلم أن الحياة تظل صديقة
وأن القمر
وان ضل عني ، سيعرف نحوي طريقه » .

هذه القصيدة وحدها ، على قصرها ، تشكل علامة مختلفة الابعاد ، عن كل ما في المجموعة الشعرية . فهي تحاول الامتداد الى خارج سور المستوى السيكولوجي الذي تحشر فيه طوقان معاناتها الفنية . لكن هذا الخروج ، يبقى لحظة واحدة ، ولا يغير بشكل جذري في بنية العمل الشعري الذي نعرفه عند فدوى طوقان . ونجد لهذا الحس الغنائي أثرا في قصيدة أخرى « أمنية جارحة » ، لكن هذه القصيدة ، على ما فيها من المباشرة ، والحس الرومانسي ، هي أغنية فنية أكثر من كونها قصيدة متكاملة . فهي تلتقط لحظة واحدة وتضرب عليها بجميع الاوتار التي تتقن استعمالها . فالخبب ينقل الموسيقى الشعرية الى القدرة على الايصال . وربط التراث القديم بالحاضر ، يجعل من الحركة الشعرية عالما يتفتح ولا ينغلق . لكن هذه الغنائية المباشرة التي نلمسها في هاتين القصيدتين تبقى بعيدة عن الاندماج في حركة الشعر الفلسطيني المعاصرة .

ان تجربة فدوى طوقان الشعرية تستحق دراسة خاصة . فهي تمثل نسيجا مستقلا ، له ثوابته الفنية . من هنا ، فان دراسة هذه الثوابت ومدى ما طرأ عليها من تحوير وتبديل بعد الهزيمة وارتفاع أسهم الشعر الفلسطيني ، حري بالدراسة الهادئة ، لانه يكشف لنا عن أكثر من جانب واحد لعملية تطور الشعر وعلاقته بالإيديولوجيا .

من يقف على قمة الدنيا وحيدا ؟ مجموعة فدوى طوقان ، تحاول عندما تقدم صورة مباشرة للواقع الفلسطيني بعد مذابح أيلول ان ترسم صورة مسيح جديد ، يصلب في ارض غريبة . وهذه المعاناة تضيق ، تضيق كلما أعدنا قراءة هذه المجموعة . فلسنا أمام صورة شاملة . نحن أمام عدسة لا تعيد صياغة الحدث عبر المعاناة الجماعية . فالمعاناة تبقى فردية . ويسقط الفرد من قمة الدنيا ليكتشف أنه كان وحيدا .

صقر قريش والتاريخ الذي لا يستعاد

تعطي مسرحية محمد الماغوط « المهرج » انطباعا حادا بالفجيعة المباشرة . فهي تنسج نفسها بشكل دائري . تبدأ وتنتهي عند تنويعتين على مساحة واحدة من العلاقات . فحين تبدأ المسرحية بفرقة الممثلين الشعبيين الذين يقتحمون المقهى ويقدمون امام الناس مشاهد بطولية مضحكة من تاريخنا القديم . فانها تنتهي عند محادثات الممثلين الاصليين الذين يحتلون خشبة مسرح الاحداث السياسية وهم يساومون على رأس صقر قريش . وبين هاتين النقطتين ينتقل الضغط الدرامي من الكوميديا الجارحة الى توتر تراجيدي عنيف يقلب مقاييس القارىء أو المشاهد ، ويضعه مواجهة أمام واقعه السياسي المباشر ، وأمام فجيعته القومية . غير أن هذا التوتر التراجيدي يحمل في داخله انعطافات وتعرجات متعددة . فهو ينتقل من قمة الايقاع الدرامي الى الخفوت البطيء والحوار الذي يريد استجلاب الضحك بشكل مباشر . ثم يحاول العودة الى مواقعه الاصلية . وهو في تنقله بين هذين الحدين يحاول أن يستعرض موقفا موحدا من هزيمة حزيران عبر اضاءة أكثر من جانب واحد منه .

ان التعامل النقدي مع نص مسرحي يختلف من حيث التوجه عن التعامل مع مسرحية تلعب على خشبة . ففي الحالة الاولى فان العمل النقدي ينصب على محاولة اكتشاف منطق الحركة المسرحية في النص ، ويعامله بعد ذلك كنص ادبي . بينما في الحالة الثانية ، فان العمل النقدي ينصب في الاساس على دراسة علاقة النص بالحركة الواقعية الحية . وينتقل بعد ذلك الى دراسة العمل المسرحي كشبكة علاقات معقدة تضم الاخراج والحركة والنص والجمهور . ورغم ان « المهرج » لعبت منذ سنتين على خشبة مسرح سينما «أورلي» في بيروت ، فاننا سنكتفي بمناقشة القسم الاول ، أي قراءة المسرحية بشكل نقدي .

١ ـ **التاريخ والارضية الواقعية** : تبدأ مسرحية الماغوط بشكل واقعي مباشر . وتضعنا بدايتها الواقعية في صلب عملية البحث